قال الله تعالى :

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير . لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

النور / ٤٥ ـ ٤٦

تفصيل المعاني :

(والله خلق كل دابة من ماء) :

خلق : أوجد من العدم . والدابة هنا تشمل كل الاحياء التي تدب على الارض على اختلاف اجناسها ، وانواعها ، واشكالها ، واحجامها . ومعنى خلقها من الماء : ان العنصر الاساسي في خلقها جميعها هو الماء ، فهي ذات اصل واحد .. وقد بين الله في كتابه الكريم : انه كون من الماء كل شيء حي : **(وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون)** الانبياء / ٣٠ .. كما بين ان

الماء كان موجودا عند خلق السموات والارض ، فقال تعالى : **(وهـــو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء)** هود / ٧ ونحن نؤمن بهذه الحقيقة التي وردت في النص القرآني كما وردت دون ان نتعرض للمكان الذي كان فيه الماء ، ولا لحالته التي كان عليها ، ولا لكيفية وجود عرش الله على الماء ، فكل ذلك من الامور الغيبية التي لم يكشفها النص القرآني . وعدم معرفتها لا يؤثر على إيماننا بالقرآن وبصحة ما جاء فيه ، فهو تنزيل من لدن حكيم خبير .

(فمنهم من يمشي على بطنه) :

اي : من الدواب من يمشي على بطنه كالحيات والهوام والاسماك

(ومنهم من يمشي على رجلين) : كالانسان والطير .

(ومنهم من يمشي على اربع) : كالبهائم والانعام والوحوش

وقد جاء التعبير بضمير العاقل تغليبا له على غيره ، واعلاء لمنزلة الانسان على سائر الدواب .

ولم يأت ذكر للدواب التي لها اكثر من اربعة ارجل ، إما لأنها في مرأى العين كالتي تمشي على اربع ، وإما لانها تعتمد في المشيء على اربع فقط .

(يخلق الله ما يشـــاء) :

فهو سبحانه وتعالى غير مقيد بشكل ولا هيئة ، والنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد انشأها الله بمشيئته المطلقة التي لا يقوم عليها قيد ولا يحدها حد .

(إن الله على كل شيء قدير) :

قدرته تعالى مهيمنة على كل شيء ، فلا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء .

وما من جنس من اجناس الدواب ، او نوع من انواعها ، إلا وهو منتظم في جماعة ذات طبائع وخصائص واحدة ، ومسلك في الحياة واحد ، شأنها في ذلك شأن جماعة الانسان .

فالله تعالى دبر أمور الاحياء جميعا تدبيرا محكما . واحصاها في علمه المحيط ، وفي النهاية يحشرها اليه فيقضي في امرها بما يشاء .. وهذه حقيقة دائمة . تراها جميع الاجيال جيلا بعد جيل ، ولذلك كان فيها من الدلائل على قدرة الله ما هو اعظم من الآيات والخوارق التي يراها جيل واحد من الناس : **(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم امثالكم**

مافرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) الانعام / ٣٨

وما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه الارض ، وتكمن في باطنها ، وتختفي في دروبها ومساربها ، إلا وعند الله علمها ، وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر ، وأين تسكن .

(وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) هود / ٦ .

وكم من دابة لا تحصل رزقها ، ولا تحمله ، ولا تهتم به ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، ولا كيف تحفتظ به معها .. ومع هذا فان الله يرزقها ، ولا يتركها تموت جوعا : **(وكأي من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم)** العنكبوت / ٦٠

وما من دابة إلا وهي في قبضة الله وملكه وسلطانه ، لا تخرج عن قبضته ، وهو معها على طريق الحق ، لا يظلمها وانما يعدل معها كل العدل : **(إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم)** هود / ٥٦

وقد ذكر الشهيد : (سيد قطب) في كتابه : (في ظلال القرآن) في الجزء الخامس والعشرين ص ٣٢٢٣ : إن الله ركب في كل من الخلائق التي تدب على الارض من الخصائص والقوى والوظائف ما يحفظ التوازن بينها جميعا .

النسور : جارحة ضاربة وعمرها مديد ، ولكنها في مقابل هذا نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس الى العصافير والزرازير .. ولنا ان نتصور كيف كان الامر يكون لو كان للنسور نسل العصافير ؟ وكيف كانت تقضي على جميع الطيور ؟

والاسود : كذلك في عالم الحيوان كاسرة ضاربة . فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاة ؟ إنها ما كانت تبقى على لحم في الغابة ولا غذاء .. ولكن اليد التي تمسك بالزمام تجعل نسلها محدودا بالقدر المطلوب ، وتجعل نسل ذوات اللحوم من الظباء والشاة كثيرا وفيرا .

والذبابة الواحدة تبيض في الدورة الواحدة مئات الالوف . وفي مقابل هذا لا تعيش الا حوالي اسبوعين اثنين . فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابة الواحدة اشهرا أو سنين ؟

إن الذباب كان يغطي الاجسام ويأكل العيون ! ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الامور وفق تقدير دقيق محسوب ، فيه حساب كل الحاجات والاحوال والظروف .

وهكذا وهكذا ، في الخلق ذاته ، وفي خصائصه ، وفي تدبيره وتقديره . في عالم الناس وعالم الدواب . في هذا كله آيات . آيات ناطقة ولكن لمن ؟

لمن يراها ويتدبرها ويدركها ، فيقر بها قلبه ويثبت ويطمئن : **(وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) الجاثية / ٤**

(لقد انزلنا آيات مبينات) :

آيات الله موضحة للحق وداعية اليه ، تحدد الخير وترغب فيه ، وتحدد الشر وتنفر منه ، وتبين منهج الاسلام في الحياة كاملا بغير لبس ولا غموض ، وهو المنهج الذي تصان به الحقوق ، وتصبح الحياة آمنة مطمئنة ، متحركة نحو البناء ، هادفة الى العدل ، متسامية عن الدنايا ، بعيدة عن الصغار والهوان .

(والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) :

مشيئة الله في عباده تقوم على الحكمة والاسباب ، وهذا ما تشهد به كتب الله ورسله . فالله تعالى اخبر انه يعامل الناس بكسبهم ، ويجازيهم بأعمالهم : **(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت)** البقرة / ٢٨٦ **(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)** الزلزلة / ٧و٨

ولا يخاف المحسن لدى الله ظلما ولا هضما : **(ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما)** طه / ١١٢

وهو تعالى يجزي بالسيئة مثلها ، ويحبطها بالتوبة والاستغفار والحسنات والمصائب ، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة .

واذا شرد العبد عن طريق الهداية دعاه الله الى الرجوع اليه ، ولا ينزل به عقابه الا عند الاصرار وشدة التمرد والعتو على ربه . ومع ذلك يأخذه ببعض ذنبه ، بحيث يعذر العبد من نفسه ، ويعترف بأنه هو الظالم لها ، كما قال تعالى عن أهل النار : **(وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير)** الملك / ١٠ و ١١ .

وكما قال عن الظالمين :**(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)** الانعام / ٤٥ .. فهو قطع وإهلاك يحمد الله عليه ، لكمال حكمته وعدله ، ووضع العقوبة في موضعها .

وقد قال الله تعالى عقب إخباره عن الحكم بين عباده ، ومصير اهل السعادة الى الجنة واهل الشقاء الى النار : **(وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)** الزمر / ٧٥ .. فالكون كله حمد الله لما شاهده من حكمته وعدله في عباده .

واخبر الله تعالى انه اذا اهلك اعداءه انجى اولياءه ، فلما سأله نوح نجاة ابنه اخبر انه يغرقه لسوء عمله : **(يا نوح إنه ليس من اهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين)** هود / ٤٦

وبين انه تعالى يهدي المجاهدين ويضل الفاسقين فقال : **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)** العنكبوت / ٦٩ . ولما قال الكفار عن ضرب المثل بالبعوضة ـ فيما حكاه الله عنهم ـ : (ماذا أراد الله بهذا مثلا) ؟ كان رد الله عليهم : **(يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض اولئك هم الخاسرون)** البقرة / ٢٦ و ٢٧ .

والله لا يطبع الا على قلوب المعتدين ، ولقد طبع على قلوب اليهود بسبب كفرهم : **(وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم)** النساء / ١٥٥ . ولعنهم بسبب عصيانهم : **(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)** المائدة ٧٨ و ٧٩

والله تعالى لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقي ، فيختار ـ لشقوته ـ الضلال على الهدى : **(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم)** التوبة / ١١٥ .

وقد خلق الله الانسان ، وفيه الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، والقدرة على اختيار الاتجاه . فمن وجه نفسه الى طريق الهدى وجد فيه نور الله ، فاتصل وسار على الطريق حتى يصل بمشيئة الله . ومن حاد عن طريق الهدى فقد النور الهادى ، فضل سواء السبيل ، حسب مشيئة الله في الهدى والضلال .

والحساب والجزاء يقومان على اتجاه الانسان الذي يملكه وان كان الاستعداد للاتجاه المزدوج هو في الاصل من مشيئة الله .

المعنى الاجمالي :

في هذه الآيات الكريمة يثير الله تطلع الانسان الى آية من الآيات الكونية الناطقة بقدرة الله فيبين انه خلق جميع الاحياء التي تدب على وجه الارض من انسان . وانعام ووحوش . وزواحف وأسماك . وطيور . وغيرها على اختلاف اجناسها وانواعها وهيئاتها من اصل واحد وهو الماء ، وحسب مشيئته جعل بعضها يمشي على بطنه ، وبعضها يمشي على رجلين ، وبعضها يمشي على اربع ، وميز كل نوع منها بخصائصه ، ووازن بينها جميعا موازنة تكفل لها الحياة في ظل العدل الالهي ..

فالامر في هذا الخلق وليد تدبير محكم دقيق ، يشهد بقدرة الله القاهرة ، ومشيئته النافذة وليس وليد فلتة ولا مصادفة (يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) .

وكم لله من آيات انزلها موضحة لمعالم الحق ، كاشفة لمواطن الهداية .. من وجه قلبه اليها اضاءت جوانبه بنورها فاهتدى ، وكانت مشيئة الحق في جانبه : **(والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)** .